

الشباب وبحبوحة النجاح



﴿لِمَاذَا الشَّيْبَ؟ أَوْ لِمَاذَا يَقْتَرِنُ غَالِبًاً﴾ الحديث عن النجاح بالشباب؟ أليس النجاح أُفقاً واسعاً يشمل الشباب وغيرهم؟ بل، هذا صحيح، وأنه أكثر من سبب يجعل هذا الاقتران صحيحاً. فالشباب هم مصدر الطاقة والقوّة ومحور الحركة والنشاط، والرهان الحقيقي، إذ يتميز عالم اليوم بالشباب في كل المجالات، ليس في التعليم فحسب، بل في مراكز صنع القرار، وإدارة أكبر الشركات وأكثرها تأثيراً في عقول الناس وحياتهم، وفي إدارة الإعلام وصنع الرأي والمزاج العام. وإذا كان لدى بعضنا هاجس سلبي من الشباب وأزّهم الهدف لأي عدو خارجي، فهم وإن كانوا قد يكونون كذلك، فهم في وجه آخر للعملة نفسها يشكّلون الضمان الداخلي وصمام أمان لمجتمعاتهم. وإن أي ارتياح من دور الشباب أو تهميش لوجودهم، أو العمل على إلهاء عقولهم وتبييد جهودهم، ما هو إلا تأجيل فاشل لقوّتهم الفاعلة. ومن هنا كانت المجتمعات الراسخة تستثمر شبابها وتعزز ثقتهم وتعتز بقدراتهم.

وقد أثبتت شبابنا جدارتهم وتطروا عقبات التثبيط والتشكك، وأثبتوها وعيهم الحاضر واستشرافهم المستقبلي، ولا يزال يتتأكد لديّ أنّ الشباب (بنين وبنات) هم مركز القوّة المتناغمة بين بوصلة المبادئ والقيم، وبين منجزات العصر ومخرجاً له.

وأمّا لماذا النجاح؟ فلأنّ النجاح أحد الخيارات (النجاح أو الفشل) ولست أفهم النجاح إلّا حركة نسبية لرحلة من الحياة الكبيرة، وليس كما ت يريد أن تقدمه بعض الكتب والبرامج والدورات من أنّه الصواب الذي لا خطأ فيه والحقّ الذي لا باطل معه، إنّه فعل بسيط يتمثل في ذكاء وذكاء يقتضي يدرك خير الخيرين ويتقى شرّ الشررين. في بحث عن الحقيقة وطلب الحكم، كلّ يعمل من مكانه ومكانته، فيتعاون بناءً، تتكامل فيه التنمية وتتناغم فيه الحياة ويتطور فيه البشر. ينطلق النجاح من عمق الروح وينسجم في مستويات الإنسان الثلاثة (النفسي والعقلي والجسدي) والليوم يتتأكد هذا الوعي بمركز النجاح ومستوياته في عالم يموج بمادياته ومخرجاتها من الحروب والنزاعات، والأمراض والأوبئة، والأحداث والمتغيرات، والتطورات والاكتشافات. وهو ما يحتم روح التعاون والانسجام والوعي المتعدد.

وبهذا يصبح النجاح منظومة قيم أخلاقية، وجدار مهارية. يدعم بعضه بعضًا، في حالته الفردية والجماعية. إنّ هذا العالم الجديد هو عصرنا الذي نحن قدره وهو فدرينا، ومجتمعه العالمي ونتاجه، وحاضره وامتداده. إنّه العالم القوي وال سريع في كلّ شيء. وإنّ لكلّ عصر روحه ولكلّ عصر شوره، وكما يقول فولتير: «مَنْ لَمْ تَكُنْ لَهْ رُوحُ الْعَصْرِ كَانَ لَهْ شُورَهُ»، فالاكتفاء أو الارتماء ليس ثناية صالحة لطبيعة الحياة عموماً، ولا سيما في هذا العصر الذي يفرض طبيعته ويصنع أفراده. إنّ طبيعة عصرنا طبيعية كونية، فكوك الأرض قد أصبح مدينة واحدة. وأحداث العالم وصوره اكتنفتها أجهزة التقنية في كف اليد. هذا العالم الجديد بانفتاحه وتوصله المعلوماتي الكبير لم يعد يشكل خطراً على المرابطين في حدوده، الرافضين لمعطياته وتحميته، فهم «يهلكون أنفسهم»، ولكنه يشكّل خطراً في المجتمع كلّه، حين تتم الممانعة ضد معطيات التقنية وتفاعلاتها، التي تفرض شكلاً آخر للوجود. إنّ هذا العالم الجديد يوجه خطراً أيضاً للعاملين الفاعلين فيه. ليس خطراً أخلاقياً؛ لأنّنا نفهم أنّ الأخلاق والمبادئ مشروع داخلي للإنسان (إِنْ يَعْلَمُ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرٌ يُؤْتَكُمْ خَيْرٌ) (الأనفال / 70)، لكن الخطرا في التحدى الذي ينتجه هذا العالم بالكم الهائل والمتجدد والمتسايد من المعلومات، وهو ما يجعل إنسان العصر، وهم الشباب، أمام حزمة من القرارات الحياتية الراهنة باستمرار، أمام المسؤولية الذاتية في كلّ أبعادها.

إنّ أما ممنا - في ما أرى - مشروعًا رباعي التكوين أوّله وأساسه «الوعي الروحي» والذي غيبة العقل المادي كثيراً، ولكننا - وَالحمد - نحتفي بعودة عالمية إلى هذا الأساس وثاني هذه الرباعية «التفكير العلمي» وليس المقصود به إلّا الخروج من حال الخرافية والسداجة إلى نوع من التفكير يسمح بانبعاث أسئلة ذكية تساعد في إنتاج أسئلة أكثر قوة، فلربما يكشف عن أجوبة تعطي المعنى، وثالثها «الاتساع الحيّاتي» بالنّظرة الإيجابية للحياة باعتبارها هدية إلهية يمكن استثمارها كرسالة بمفهوم فن الحياة، أما رابع التكوين فهو «الإنجاز على نحو مختلف» إنجاز يتجاوز تكرار الذات إلى افتتاح آفاق

ما سُمي «المجهول والممتنع واللامعقول» فهذه مناجم الإبداع وحقول الزرع. ومن زرع حصد. ▶